

بين العلم والفلسفة

وهل ضعف الايمان بالعلم ؟

للدكتور محمد حسين هيكل بك



ليس الدكتور هيكل بك ، بالمجهول لدى القراء
فنعرفه ، ولا بالحامل الذكر بين العلماء ففهمه
وانه لمن المبالغة أن تقدم رجلاً كهيكل قامت
عليه ميادى كل الادب القومى الحديث ، وكان
له القدح المملئ في اذكاء الروح القومى ، وأكبر
الاثار في تقدم الصحافة المصرية .

ومن ذا الذى لم تنفقه كتابات هيكل على أو
تقومه وسائله الادبية الرائجة ؟

وفي الحق أنه لمن الظلم ، أن ننحى عليه من
وسائل «شريدة» ، ولكن الحق كل الحق
أن تنظر إلى مجموع كتاباته المتنوعة في مختلف
العلوم والفنون والسياسة والادب والاجتماع ،
لتعرف أنه في طليعة العلماء والمفكرين . وعلى
رأس الاديان المبرزين ، وفي الذروة من قمة
الكتاب المعروفين .

وحسب القراء ، أن يعرفوا ، أن «هيكل»

عماد الحركة الادبية ودعامتها القوية لاقى مصر تحسب بل وفي جميع أنحاء العالم
وقد تشرفت بزيارته راجياً التفضل بكتابة بحث من بحوثه اقيمه فحرم بهذا البحث العجم الذى يراه
القراء بعد ؟ المحرر

يقولون إن الديمقراطية والنظم الحرة التى قامت على أساسها ، تعاني اليوم أزمة مظهرها
قيام الطغاة والحكام بأمرهم في أكثر من أمة مستقلة . ويعلم البعض هذه الظاهرة بأنها
بعض آثار الحرب ، وخضوع الدول والشعوب للقوة الناشئة ، قوة البواتر والمفرقات
والغازات الخائقة وما إليها من عدة الهلاك والدمار . فإذا كنت الشعوب يخضع بعضها
للبيعض عن طريق هذه القوة المدمرة ، فهذه القوة يمكن أن تتخذ من الأخرى أداة
لاخضاع شعب بأسره لنظام معين ولحكم فرد من الأفراد مادام هذا الفرد يصرف القوة

المدمرة، ويستطيع بذلك أن يخضع غيره لما يعتقده هو خير ذلك الغير ولو على كره منه وبارغام إرادته وإذلال أنفته .

هل يعاني العلم اليوم أزمة كالأزمة التي تعانها النظم الحرة ؟ ؟ يجب ألا كثرون على هذا السؤال إيجاباً ويحاولون أن يردوا سبب الأزمة إلى الحرب الأخيرة وآثارها . فهم يقولون : إن العلم حاول خلال القرن التاسع عشر كله ، وخلال النصف الأخير منه بنوع خاص ، أن يحل كل مشاكل العالم العقلية والنفسية خلا يقيمه على طرائق من الملاحظة والتجربة والمقارنة ، وأنه نجح في ذلك الى حد كبير ، فلما جاءت الحرب الكبرى واشتركت فيها الأمم بمختلف طبقاتها ، وعانت هذه الطبقات من كوارث الحرب ومصائبها ما عانت ، قصر العلم عن أن يمددها بالسند الروحي أو النفسى الذى يرتفع بها فوق كوارثها ومصائبها ، فلم يك بد من الاتجاه إلى وحى الالهام والعاطفة مما لا يقره العلم ، ومن الرجعة الى الدين ، وإلى السند الروحي منه بنوع خاص ، لتستطيع الانسانية أن تواجه ما أنأخت الحرب به عليها من أزمائها . ومن ثم يعاني العلم أزمة كالتى تعانها الحرية ، ومن ثم يلتمس الناس في غير طرائق العلم سنداً للنفوس ، ومقياساً للعلاق ، وأداة لجدة روحية ترتفع بالعالم من التمرغ في وهدة المادة التى دفعت الحرب به اليها ، والتى جعلته يلتمس في إرضاء الشهوات الدنيا وسائل لنسيان همومه بعد أن كان يواجهها بعواطف سامية من الصبر والجلد ويحسها في سكون وطمأنينة ، لأنه كان يجد في الايمان درعاً قوياً يغالى به ويتغلب عليها .

ولئن صح ان كانت الديمقراطية ، والنظم الحرة تعاني أزمة سببها الحرب ، فان اعتبار الحرب سبب ما يمكن أن يدعى أزمة العلم فيه شئء كثير من التجوز ، يجعل تجوزاً كذلك اعتبار التطورات الفكرية الأخيرة أزمة عامة . والواقع أن ما يمكن أن يعتبر سبب هذه الأزمة يرجع الى ما قبل الحرب بسنوات عدة . فنذ فكر المستر ستند صاحب مجلة المجلات الانكليزية فى مخاطبة الأرواح ، ومنذ تابعه فى هذا التفكير كونان دويل ، وأوليفر لودج وغيرهم من العلماء المشهود لهم بالزاهمة والفضل . من ذلك التاريخ ومن قبل ذلك التاريخ ، بدأ اضطراب الايمان المطلق باستطاعة العلم الوصول الى الحقائق جميعاً ، وبدأ كثير من العلماء يعملون ميدان العلم غير ميدان الفلسفة ، ويقررون بصراحة أن ميدان العلم بالغاً ما بلغ امتداده ، لن ينال من ميدان الفلسفة والايمان إلا عقادير قد تبدو لنا

عظيمة وهي في الواقع ضئيلة كضالة كوكبنا الأرضي الى جانب الكواكب الأخرى ، واني جانب لا نهائية الوجود .

وقبل أن نعرض لهذا الذي يسمى قنبوراً أزمة العلم ، نريد أن نشير قليلاً لتفكير في منشأ هذه الأزمة . فنجد ظهرت الفلسفة الواقعية (أو الوضعية كما يجري به الاصطلاح) رأى مؤسس هذه الفلسفة : أوجست كومت : ورأى عمادها العظيمان تين ورينان أن العلم سيحل مشاكل العالم جميعاً ، ومن بينها المشكلة الدينية ، أو بعبارة أدق مشكلة الايمان . وأن التسليم بقواعد ونظريات لا تؤيدها الطرائق العلمية المستندة إلى التجربة والملاحظة والمقارنة يجب أن يتلائم ليحل محله إيمان أساسه هذه القواعد العلمية التي تكشف لنا — بطريقة لا تتطرق الريبة إليها — عن سنن الكون وقواعد العالم وما حسبه المديون والفلاسفة (المتافيزيكيون) مما لا يخضع للعلم ولا للحس وما يجب أن يرجع الى الوحي السماوي أو الالهام النفسي . وهذا الايمان بالعلم هو الذي جعل أوجست كومت يقرر ما سماه قانون الحالات الثلاث : الحالة اللاهوتية (النولوجية) والحالة التجريدية (المتافيزيكية) والحالة الواقعية (العلمية) . ويعتبر هذه الحالة الأخيرة مدى ما يمكن أن يصل الى العقل الانساني وما يستطيع معه أن يحل كل مشاكل العالم ومعضلاته . وقد بال أصحاب كومت والتابعون اياه في الايمان بالعلم وبما يحل العلم من مشاكل الحياة حتى خيل الى البعض أن مبادئ الدين والفلسفة توشك أن تسلم نفسها لميدان العلم وتصبح بعض هذه الأساطير التي أورثنا اياها التاريخ ، ليتلها بها الكتاب والشعراء ورجال الفن على علم بأنها أساطير لا يمكن أن تكون موضعاً لايمان رجل مثقف .

والواقع أن العلم تقدم ، وما يزال يتقدم حتى اليوم ، ويحل من المشاكل ما كان يظن انى ماض قريب مستحيل الخضوع لحكم التجربة والملاحظة والمنطق العلمى . بل إن خطى العلم قد بلغت من السرعة في هذه السنين الأخيرة ما أدهش الاذهان التي كانت في ريبة من استطاعة العلم أن يكشف من طوائف المجهول عن كل هذا المقدار . وكما كنا نهد في الماضى مؤمنين ببلدهم أن يضخوا في سبيل ايمانهم براحتهم وبمحيطاتهم ، فإن كثيرين من العلماء ، يتعرضون اليوم في سبيل العلم لآصور من التضحية يتضاءل أمامها كل ما عرف من التضحيات في كل العصور التي سقت هذا العصر . ولسنا بحاجة في هذا السبيل الى أن

نذكر مثل العالم البلجيكي بيكار الذى اخترق طباق الجو الى ارتفاع خمسة عشر كيلومتراً عن سطح البحر ليقوم بالملاحظات ويدون الظواهر الجوية عند هذا البعد من أرضنا حيث لا تستطاع الحياة الانسانية — لسنا بحاجة الى ذكر هذا المثل والامثال من نوعه فى السنين الأخيرة كثير . وكثير من أمثال هذه التضحيات للعلم يتم فى سكون ومن غير جلبة ، لأنه يتم فى أكثر الأحيان فى معمل من المعامل وبين جدرانها التى لا يعرف العالم عما يتم فيها الا ما يظهر من نتائجها — بينما تظل الجهود الضخمة التى ينفقها العلماء والتى يذيقون فيها أذعابهم وعقولهم وأفئدتهم مطلوبة عن الناس لأن أصحابها يرون كل تضحية فى سبيل العلم أقدس من أن يتباهى صاحبها بها على أنها موضع افتخار أو إعلان . وهذه النتائج التى يكشف العلم كل يوم عنها وعنده انطلى يسبق العلم الانسانية اليها قد كان لها من غير شك أثرها فى حياتنا النفسية وان لم يك بمقدار ما كان لها من أثر فى حياتنا المادية ومعيشتنا الاجتماعية . لكن هذه الخاطى لما تبلغ بعد ذلك المدى الذى كان يتوقعه كومت ودين وريتان . هى لم تلبس لتكشف عن حقيقة الوجود وسقطة العلة بين الانسان والوجود . وهذا هو مصدر ما يمكن أن يسمى تجوزاً أزمة العلم ، وإن كان العلم لا يحس قط شدة الأزمة ، وكان يسير فى سبيله بقدرة ثابتة وإيمان راسخ وتقدير دقيق للرسالة العظيمة السامية التى يضطلع بها ليعمل بالانسانية الى الكمال أو ليقرب بها الى أدنى الغايات من هذا الكمال .

لا يحس العلم بهذه الأزمة لأنه واجه مثلها فى عصور كثيرة . وقد تغلب فى بعض هذه العصور على الشعور العام بقصوره عن حل مشاكل الانسانية ، ووقف فى عصور أخرى مكتوفاً لا يتقدم حتى طغى عليه هذا الشعور بقصوره طغياناً رد الناس إلى الايمان الذى لا يستند الى شئ من العلم . ولست أدري إن كان الشعور بمقدرة العلم على حل معضلات الحياة جميعاً قد بلغ من النفوس فيما مضى ما بلغ فى القرن التاسع عشر فى أوروبا . لكن الثابت أن عصور ازدهار الحضارة الاسلامية قد رأت نهضة علمية عظيمة قرر رجالها طرائق البحث العلمية الحديثة وان لم يعلموا مبدأ الفصل بين العلم والايمان المستند الى ما سوى العلم . أفترى ما أصاب العلوم الاسلامية من أزمة تقدمت اضمارها مصيباً العلم فى هذا العهد الحاضر لتطغى الأوهام على أهله كما طغت على المسلمين ولينقل العلم

بعد ذلك الى أوطان غير أوطانه اليوم ؟ أم أن نوعاً من المؤازرة والتعاون سيكفل للعلم أن يظل سائراً في طريقه وأن تتسع دائرة أوطانه وأن يعد الأيمان بقوة تجعله أسمى نظرة وأجل تسامحاً وأجدى عوناً في تقريب الانسانية من غايتها ؟

ليس يسيراً أن ندلى بجواب صريح أو أن نختار إحدى هاتين الخطتين . لكن الذى نلاحظه أن ثمة اليوم بين العلم والفلسفة تنافساً صريحاً ، فأيهما أقدر على حل لغز الوجود والكشف عن حقيقته وحقيقة الصلة بين الانسان وبينه ؟ فالعلماء الواقعيون يعلنون من جانبهم أن أبحاثهم تدنو بهم من هذه الغاية على مهل ولكن بقدم ثابتة وبالوسائل العلمية التى لا يتطرق اليها الريب . أما الفلاسفة « الألهاميون » فيذهبون الى أن العلم على جلال ما كشف عنه وما أضاء به سبيل الفلسفة لن يصل الى كنه الحقيقة التى تتعلق بإيمان القلب بها ، وأن هذه الحقيقة سيظل أبداً مصدرها الألهام وأنها فى وحدتها قد تتخذ صوراً وألواناً مختلفة بمقدار ما يفسح العلم أمام إلهامنا من فرجات للبصيرة ، لكن الألهام سيظل آخر الأمر مرجع الأيمان الذى يهذب تفكيرنا وينظم تبعاً لها طرائق معيشتنا وسياستنا ويصور من هذا الكل الخاضع لأيماننا حياة الفرد وحياة الجماعة وحياة الانسانية ويقرر صلات الفرد والجماعة والانسانية جميعاً بعضاً ببعض ، وبعضها بالكون الأعظم أو بمبدع الكون الأعظم على النحو الذى يهذى اليه الالهام المستمد من الكون الأعظم ومبدعه

على أن السابقين من أصحاب هذه الفلسفة يستمد إلهامهم وحيه من العلم ونتائجه ونظرياته . وليس واحد منهم الا من درس العلم دراسته دقيقة ووصل بين نتائجه ومنطق العقل ووحى البصيرة . وهذا برجسون ، أشد أصحاب هذه الفلسفة منذ أوائل هذا القرن بروزاً ، ممن يفاخر بهم العلم الحديث . ووليم جيمس الفيلسوف الأمريكى الذى جعل من دراسة النفس الانسانية ميدانه والذى يأخذ بمذهب الالهام على نحو ما يأخذ به برجسون وإن اتجه بأبحاثه الى غير وجهته هو الآخر عالم ضليع بالعلم الحديث وبما أبدع . وطائفة غير دنيين من فلاسفة الالهام يعتبرون جميعاً فى عالم العلم أعلام هدى يحج الثلاب ويحج العاداء أنفسهم اليهم . وليس فى ذلك من عجب وطائفة من الفلاسفة الواقعيين يقررون أن اللامان ميداناً غير ميدان العلم وإن كانوا يرون ميدان الايمان عقبا غير ذى ، جدوى فغير

جدير بالنفس المهذبة أن تتجه اليه . وأصحاب نظرية الإلهام في حل بطبيعة الحال من مخالفة الواقعيين رأيهم في شأن ميدان الإيمان وفي حل من اعتباره أسمى الميادين التي يجب أن يعد العلم لها ، وفي أنه الميدان الذي يجب أن تجعله النفس المهذبة وجهتها وفي أن تصل منه إلى أسمى غاياته . وقرار الواقعيين بهذا الميدان ووجوده حجة لمعارضيهم وتبرير صريح لبحثهم فيه ابتغاء بلوغ علما مراتبه . وإن كثيرين من هؤلاء المعارضين ليذكرون هربرت سبنسر وما قدم به للجزء الأول من فلسفته التوفيقية — جزء المبادئ الأولى — حين تحدث عن مالا سبيل إلى معرفته (The unknowable) وليعتضرون عليه بأن ما يحسب هو ألا سبيل إلى معرفته قد يتمكن غيره من الوصول إلى معرفته إذا سلكوا طريقاً غير طريقه ولم يتيقيدوا تقيداً مطلقاً بالملاحظة والتجربة والاستقراء ، وجعلوا الإلهام حاسة كالنظر أو السمع يستطيع أن يسجل ما تسجله هذه الحواس من ملاحظات وتجارب يبنى العقل وتبنى البصيرة على أساسهما نتائج الاستقراء التي يصلان إليها

أي هذين التيارين ينتهي إلى الانتصار ؟ أم هما يظلان متوازيين متعاونيين ؟ وهل هذه الظاهرة التي يحلو لبعضهم أن يسميها أزمة العلم ستمخض عن انتصار نظريات الإيمان انتصاراً يقلل من سرعة تيار العلم ويباعد بين خطواته ؟ وإذا كان ذلك فهل له غاية ينتهي إليها ؟ هذه كلها مسائل جديرة بالبحث ، نود لو تناولها مفكرون ورجال الجامعة في مقدمتهم . ونحسب أنها تكشف في اعتقادنا عن ميادين للنظر والتفكير جديدة ، جديرة بكل اعتبار وعناية .

محمد حسين هيكل

تحذير ورجاء

رجو حضرات الكتاب والأدباء والعلماء وجميع الذين يتفضلون على مجلتنا بأبحاثهم أن يتأكدوا من كل شخص يتقدم إلى حضراتهم مدعياً تمثيل المجلة لأخذ موضوع أو حديث أو غيره منهم . فقد أبلغنا بعض حضراتهم عن أشخاص من هذا القبيل ، تقدموا إليهم بتلك الدعوى الكاذبة وليست لنا بهم علاقة مطلقاً . المحرر